جامعة عين شمس
كلية البنات عين شمس
قسم التاريخ

دور المغاربة الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي

رسالة لنيل درجة الدكتوراه في التاريخ الحديث

مقدمة من الباحث

سليم رجب محمد عبد العاطي

إشراف

د.سلوى إبراهيم العطار
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المساعد
بالكلية

أ.د.يوسف سالم البرغثي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة قاريونس بالجماهيرية الليبية

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

شكر وتقدير

الحمد لله والشكر له والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى اله وصحبه وسلم وبعد،، أتقدم بالشكر والتقدير للأستاذة الدكتورة سلوى إبراهيم العطار والأستاذ الدكتور يوسف سالم البرغثي على ما بذلاه من جهد في سبيل إنجاح هذه الرسالة .

رسالة دكتوراه

العنـــــــوان : دور المغاربة الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي

اسم الباحـــــــث : سليم رجب محمد عبد العاطي

الإجازة العلمية : دكــتوراه

أسماء المشرفين : د.سلوى إبراهيم العطـــار التوقيع :

:أ.د :يوسف سالم البرعثي

التوقيع:

لجنة المناقشة :

١. د :زين الدين شمس الدين نجم التوقيع :

٢. د . عايـــدة سليـــمة التوقيع :

وكيل الكلية للدراسات العليا التوقيع :

مستخلص الرسالة

الرسالة مقدمة لنيل درجة الإجازة الدقيقة" الدكتوراه في التاريخ الحديث "وهي بعنوان **" دور المغاربة الاقتصادي والاجتماعي والثقافي في مصر خلال القرن الثامن عشر الميلادي".**

وقد احتوت الأطروحة على مقدمة وخمسة فصول وخاتمة بالإضافة للملاحق وقائمة المصادر والمراجع .

وقد تناول الفصل الأول عرض تمهيدي للرسالة والملامح العامة لأوضاع المغاربة في القرن السابع عشر، مع ذكر الأسباب التي دعت المغاربة للهجرة إلى مصر خلال القرن الثامن عشر.

أما الفصل الثاني فقد اشرنا إلى القبائل المغربية الوافدة إلى مصر ودورهما الايجابي والسلبي واستقرارها في مناطق الريف أو التي أثرت حياة الترحال والتجوال بين أنحاء هذا الريف.

ثم يأتي الفصل الثالث ، الذي ركزنا فيه على دور المغاربة الاقتصادي في مصر خلال القرن الثامن عشر ومحاور الدراسة فيه ركزت على أهم العوامل المساعدة على نمو

التجارة والطرق التجارية التي استخدمها التجار وأهم الوكالات والأسواق وأنواع السلع الصادرة والواردة كما تطرق الفصل للأنشطة الصناعية والحرفية وتنظيماتها وأنواعها ودور المغاربة في المجال الزراعي وحصص الالتزام الزراعية والنظام المالي الذي اتبعه المغاربة لتسهيل عملياتهم التجارية من خلال القروض والاستثمارات والرسوم الجمركية والكيفية التي تغلب بها المغاربة على هذه الرسوم ،والعملات المتداولة في تلك الفترة.

أما الفصل الرابع والذي عنون الحياة الاجتماعية للمغاربة في مصر خلال القرن الثامن عشر فقد ركز على التواجد المغاربي في المدن المصرية ، والتأثيرات الاجتماعية سواءاً لكبار التجار أو للأشراف المغاربة في مصر .

والفصل الخامس كانت دراسة التأثير الثقافي للمغاربة في مصر من خلال تواجدهم في المؤسسات العلمية كالزوايا والكتاتيب أو المدارس العلمية في المدن أو داخل الرواق المغاربي في الأزهر ودور المغاربة العلمي وأنشطتهم العلمية المختلفة أو من خلال المناصب العلمية التي تقلدوها .

وأخيراً احتوت الرسالة على خاتمة توضح النتائج التي توصل إليها الباحث بالإضافة إلى الملاحق وقائمة المصادر والمراجع الخاصة بالرسالة التي رجع لها الباحث خلال هذه الدراسة .

المقدمــة

ما فتئت الدعوة لإعادة كتابة تاريخ المنطقة العربية بمنظور جديد تجددّ في السنوات الأخيرة. إن هذه الدعوة تسعى إلى تجاوز مواضيع التاريخ السياسي الذي اقتصر اهتمامه على الحكام والأمراء ودورهم في مسيرة الأحداث والعمل على إبراز الجوانب الاقتصادية والاجتماعية والثقافية أيضاً وفق وجهة نظر تبرز الدور الفاعل للأهالي ومن هنا حظيت الجاليات والأقليات والطوائف في مصر إبان العصر العثماني بنوع من الاهتمام المتزايد بهدف دراسة البناء الداخلي للمجتمع المصري في هذه الفترة من تاريخ مصر ،الإ أن الجالية المغاربية كانت أقل الطوائف حظاً في الدراسة رغم ثقل تواجدهم في مصر الذي امتد ليشمل أغلب المدن المصرية ولم يحظ المغاربة إلا بدراسة الأستاذ الدكتور/ عبد الرحيم عبد الرحمن عبد الرحيم وبعض الدراسات الأخرى وعلى الرغم من أهمية هذه الدراسات والتي كانت الحجر الأساسي الذي انطلقت منه الدراسة إلا إن الإشكالية التي تطرحها هذه الدراسة تكمن في الدور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي خلال القرن الثامن عشر تحديداً والمدى الجغرافي الذي اتخذته معاملاتهم بمختلف أنواعها كما أنها تكشف عن التطور الاقتصادي والاجتماعي والثقافي من داخلية بناء النظام الحياتي للناس وللمجتمع وليس من خلال الدولة والقوانين والنظم .

إن اختيار هذه الجالية موضوعاً للدراسة يرجع إلى أنه كانت أكبر طائفة إسلامية عربية وافدة إلى مصر كما أنها ترجع إلى ظروف عملية وثائقية بصورة أكبر حيث تردد المغاربة بصورة أوسع من غيرهم على المحاكم الشرعية ، ربما بسبب كونهم من الوافدين فقد حرصوا على تسجيل أملاكهم وتعاملاتهم لتأكيد هويتهم والمحافظة على ممتلكاتهم وهذا الأمر قد وفر المادة العلمية لهذه الدراسة .

كما ينبغي الإشارة إلى أن وضع إطار زمني لهذه الدراسة وهو القرن الثامن عشر تحديداً كان له أسبابه وهو تطور العلاقات التجارية المغاربية وظهور ما يعرف بالرأسمالية التجارية من خلال

الشخصيات البارزة في هذه الأسر مما يساعدنا على أن نضع التغيرات الاقتصادية في سياق اجتماعي وثقافي بدلاً من دراستها كظاهرة مجردة منعزلة عن أي سياق محدد، كما أن القرن الثامن عشر يعد بحق عصر ازدياد النفوذ المملوكي على أجهزة الحكم وتغلبه على نفوذ الباشاوات العثمانيين وصار الأمر كله بأيدي الأمراء المماليك دون غيرهم ، ولكن مع ازدياد نفوذ الأمراء المماليك ظهرت الفرقة بينهم وانقسموا إلى بيوت متصارعة متسابقة على الحكم ولا يهمنا من هذه الصراعات سوى تأثيرها على الجالية المغاربية باعتبارها جزءاً من البناء الداخلي للمجتمع المصري في تلك الفترة .

وقد قسمت هذه الدراسة إلى خمسة فصول فضلاً عن المقدمة والخاتمة والملاحق وقد تناول الفصل الأول الملامح العامة لأوضاع المغاربة في مصر في القرن السابع عشر والذي برزت أهميته في كون المغاربة بدوا أكثر اقتراباً بالهياكل العسكرية والسياسية من أجل حماية ممتلكاتهم من الابتزازات المستمرة من جانب الأمراء والمماليك .كما عالج الفصل أسباب هجرات المغاربة إلى مصر وفيه تم التأكيد على قدم التواجد المغاربي في مصر وعلى أن طرد الأندلسيين وهجرتهم إلى مصر إضافة للضغط الاسباني المستمر على المغرب العربي والظروف السياسية التي مرت بها هذه البلدان من عوامل الطرد السكاني وهجرة العديد من الأسر المغاربية إلى مصر؛ ناهيك على أن النشاط التجاري والحج ووجود الأزهر الشريف باعتباره مركزاً ثقافياً وعلمياً جعلها محط أنظار كثير من المغاربة للإستقرار بها.

وتناول الفصل الثاني والذي جاء تحت عنوان " القبائل المغربية في مصر خلال القرن الثامن عشر " التركيز على ذكر الأماكن التي تركزوا فيها وأهم القبائل التي استوطنت مصر والحديث عن الحرف التي انتهجتها هذه القبائل في الريف المصري وذكر أهم القبائل المغاربية التي لعبت دورها في مجريات أحداث التاريخ المصري منها قبيلة الهوارة في الصعيد وقبيلة ابن وافي المغاربة وعلاقتهم بالفلاحين بالإضافة لدور هذه القبائل الايجابي والسلبي في هذه المناطق التي استقروا بها.

وعنون الفصل الثالث " بدور المغاربة في الحياة الاجتماعية في مصر خلال القرن الثامن من عشر" فقد أشرنا فيه إلى تواجد المغاربة في المدن المصرية المختلفة، مع ذكر الأشراف المغاربة ومكانتهم في مصر، كما تطرق الفصل إلى البيوت التجارية المغاربية و دور كبار التجار في الحركة التجارية المصرية بصورة عامة وأساليبهم لتكوين الثروات بالاتجاه للتجارة في السلع والبضائع التي تحقق أرباحاً عالية مثل التوابل و الأقمشة القطنية ودورهم في تجارة مصر الخارجية وسيطرتهم على حركة التجارة بين مصر وبلدانهم.

أما الفصل الرابع والذي جاء تحت عنوان " دور المغاربة الاقتصادي في مصر خلال القرن الثامن عشر " تحدثنا فيه عن موقع مصر الإستراتيجي وأهميته بالنسبة للنشاط التجاري للمغاربة مع الإشارة إلى العوامل التي ساعدت على النشاط التجاري كالأسواق والوكالات وتكوينهم للمراكز والقواعد التجارية الثابتة على أهم الطرق التي تربط بين الشرق و الغرب سواء البرية منها أو البحرية ، كما تطرق أيضاً إلى الأنشطة الصناعية والمهنية وطوائف الحرف وتنظيماتها وأنواعها .

كما تناول الفصل أيضاً النشاط المغاربي في المجال الزراعي ،بهدف استثمار أموالهم في حصص الالتزام الزراعية بالإضافة لاستفادة المغاربة من أراضي الوقف والاستثمار في تلك الأراضي بأساليب مختلفة ، وتعرض الفصل الرابع أيضاً إلى النظام المالي للمغاربة في مصر من خلال الكيفية التي استثمر بها التجار المغاربة أموالهم سواء بالاقتراض الذي يؤهله لتمويل تجارته أو الدخول في العمل الاستثماري عن طريق الشراكة مع غيره من التجار في تلك الفترة، ومحاولة التغلب على الرسوم الجمركية التي فرضتها أجهزة الدولة خلال القرن المذكور ، مع الإشارة إلى العملات التي تداولها التجار المغاربة في تلك الفترة.

ويأتي الفصل الخامس ليؤكد الدور الثقافي للمغاربة في القرن الثامن عشر والتأثير في مصر من خلال الزوايا والكتاتيب والمدارس العلمية في المدن ورواق المغاربة في الأزهر والعلماء المغاربة من خلال نشاطهم و مناصبهم العلمية .

وقد اعتمدنا في هذه الدراسة على كم من الوثائق والمخطوطات والمصادر والمراجع والدوريات العربية والأجنبية التي ألقت الضوء على ما كان غامضًا بالإضافة إلى العديد من الأبحاث والدراسات التي كان لها قيمة وثائقية، وعلى عدد من الرسائل الجامعية غير المنشورة، كما تم الاستعانة بالوثائق المتواجدة في دار الوثائق القومية كسجلات إسقاط القرى وهي عبارة عن سجلات تتم علي يد قاضي الشرع ويسمى الشخص المتنازل عن حصة التزامه أمام القاضي "مسقط" والمتنازل له "مسقط له"، والقسمة العسكرية والإسكندرية الشرعية وسجلات دمياط ورشيد والمنصورة وبولاق الشرعية وسجلات تقارير النظر وسجلات محكمة قنا، وطولون والديوان العالي ومحافظ الدشت وهي عبارة عن الأوراق والملازم وأجزاء تفككت من سجلات المحاكم الشرعية المختلفة وفقدت هويتها تم تجميعها في محافظ قام بترتيبها موظفو وزارة العدل ترتيبًا زمنيًا في محافظ أطلق عليها محافظ الدشت.

وقد واجهنا خلال فترة الدراسة العديد من الصعوبات منها على سبيل المثال لا الحصر صعوبة استخراج المادة العلمية من بعض الوثائق نظرًا لرداءة الخط المكتوبة به ووجود بعض المصطلحات الصعبة الخاصة بفترة الدراسة والتي أمكننا التغلب عليها بمعرفة معناها وذلك بالرجوع إلى بعض المراجع الأخرى التي اهتمت بشرحها وتفسيرها، بالإضافة إلى تمزق بعضها وعدم السماح بخروج بعضها الآخر للقارئ لصعوبة تداولها.

وفي النهاية لا يسعني ألا أن أتقدم بخالص شكري وتقديري إلى أساتذتي الذين كان لهم عظيم الفضل على هذه الدراسة ، فانطلاقاً من مبدأ العرفان بالجميل أتقدم بشكري للأستاذة الدكتورة سلوى إبراهيم العطار المشرفه على الرسالة فلقد وقفت بجانبي في أصعب اللحظات وكانت بصماتها الفكرية مطبوعة في عقل الباحث فما البحث والباحث إلا ثمار غرسها وجهدها فإليها أتقدم بخالص الشكر وأدعو لها بطول العمر لتظل شمعة مضيئة تنير طريق المتعلمين، وأتقدم بشكري العميق إلى الأستاذ الدكتور / يوسف البرغثي المشرف المشارك على هذه الرسالة فكانت ملاحظاته السديدة وأرائه الصائبة دوماً تساعدني على إعادة ترتيب أفكاري.

كما يستلزم واجب العرفان بالجميل بان أتقدم بخالص الشكر إلى :أ.د. صلاح احمد هريدي الذي ساعدني في قراءة بعض الوثائق واستخراج المعلومات من بين ثنايا هذه الأوراق.

وأخيراً أتوجه بالشكر للأخوة بدار الوثائق القومية الذين بذلوا جميعاً مجهودات كبيرة لكي يظهر البحث بهذه الكيفية فجزاهم الله خيراً .

وفي النهاية فإن هذا لا يعنى أن أحدًا يتحمل تبعة ما في هذه الدراسة من عثرات فذلك يقع على عاتقي وحدي فكلنا يريد الحقيقة ولكن يبقى الكمال لله وحده.

الفصل التمهيدي

- الملامح العامة لأوضاع المغاربة في القرن السابع عشـــــــر

- أسباب هجرات المغاربة إلى مصر خلال القرن الثامن عشر

تمهيد

يعتبر موضوع الهجرات المغاربية من المواضيع المهمة التي ساهمت في زيادة الترابط التاريخي والديني للمنطقة العربية عموماً، كما ساعد على ذلك طبيعة الحكم العثماني ودوره في تقوية العلاقات العربية، فمن المعروف أن الدولة العثمانية لم تضع قيوداً على حركة السكان وممارسة نشاطاتهم المختلفة ، مما أعطى لأبناء المنطقة العربية حرية الحركة والتنقل واختيار البلد الذي يستطيع الشخص فيه أن يمارس نشاطاته المختلفة دون عائق .

وقد ازداد الاتجاه المغاربي إلى المشرق في تلك الفترة نتيجة للعلاقات العدائية بين أوربا والمغرب ، وخطورة القرصنة في المحيطات فأدى ذلك إلى الإبقاء على خط التجارة نشيطاً بين المغرب والمشرق والعكس ،مما جعل المغاربة يشكلون في معظم بلدان المشرق العربي وبخاصة مصر جالية لها ثقلها في مجالات الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية .

وتأتي أهمية هذه الدراسة على الصعيد المنهجي لكونها دراسة محورية للتاريخ ، حيث تبرز دور المغاربة الاقتصادي والاجتماعي والثقافي من خلال تعاملاتهم اليومية وما تواجهه من أمور حياتية والتي عادة ما كان المغاربة يسجلونها في المحاكم الشرعية ، وبالتالي تمثل شكلاً من أشكال الكتابة التاريخية تقوم على المادة المنتقاة من خلال التعاملات اليومية للناس على عكس المصادر والحوليات التاريخية ، التي تهتم برصد الأحداث الاستثنائية ، ومن هنا تسمح لنا هذه الدارسة بفهم تاريخ الفترة التاريخية من خلال الزواج والطلاق والبيع والشراء ...الخ

ونظراً لاتساع الفترة الدراسية التي شاهدتها الهجرات الكثيرة للمغاربة تجاه مصر والتي أقر كثير من المؤرخين أنها وجدت منذ العهد الإسلامي فقد رأينا التركيز على أهمية القرن الثامن عشر تحديداً لكون الجالية المغاربية التي أطلق المصريون عليها (العرب المغاربة)[١] أكثر الجاليات الوافدة إلى مصر خلال تلك الفترة من العصر العثماني ، والذي يؤكده عدد من المؤرخين من أمثال اندريه ريمون الذي قدر أعداد المغاربة خلال هذا القرن بحوالي ١٠٠٠٠ نسمة من مجموع سكان مصرالبالغ٢,٥ مليون نسمة [٢] ، وأحمد باشا الجزار الذي كتب تقريراً حول أوضاع مصر في سنة ١٢٠٠هـ/ ١٧٨٥ م ، وذكر فيه الأعداد الكثيرة للتجار المغاربة المقدر بحوالي ٤٠ ألف تاجر[٣] ، هذا إذا ما أخذنا في الاعتبار بقية الفئات من هذه الجالية سواءً كان عمالاً أو طلاباً أو علماء داخل رواق المغاربة.

1-DD ubois –Ayme . memoire sur Les tribus Arabes des deserts dans L'Egypt ،T،11.paris.1809.p.p.114-117.

٢– اندريه ريمون، المدن العربية الكبرى في العصر العثماني ، ترجمة لطيفة فرج ، دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع ، ١٩٩١م ، ص ٤٧ .

٣ – احمد باشا الجزار ، نظام نامة مصر ، منشور ضمن كتاب عبد الوهاب بكر ، الدولة العثمانية ، ومصر في النصف الثاني من القرن الثامن عشر ، دار المعارف ، القاهرة ١٩٨٢ م ، ص ١٨٢

كما لاحظ أحمد شلبي عبد الغني في سنة ١١٨هـ/ ١٧٧٥ م وصول أعداد كبيرة من المغاربة فذكر قائلاً " ورد إلى الإسكندرية غليون ملأن غريب جت "[١].

ويبدو من خلال ذلك وصول أعداد من المراكب البحرية القادمة من منطقة المغرب العربي والتي جاءت نتيجة للهجرات الفاسية عقب السياسة العنيفة التي اتبعها مولاي إسماعيل تجاه الحواضر التي كانت تعلن عليه التمرد والعصيان .

وقد لوحظ من إستقراء الوثائق استمرار التدفق القاسي إلى مصر منذ سنة ١١٢٣هـ/١٧١١م .

حتى بعد وفاة مولاي إسماعيل لم تتوقف هجرات المغاربة نتيجة لاستمرار الإضطراب السياسي والحركات الإنفصالية التي ساهمت في زيادة الذعر عند السكان الذين بدؤا في الخشية على أموالهم التي حرص كل من يحصل على السلطة على جمع اكبر قدر ممكن من هذه الأموال لدفع رواتب الجند والتجهيز للمعارك القادمة عن طريق مصادرة أملاك أهل فاس والحواضر المغاربية الأخرى.

إضافة إلى ذلك فقد تعرضت مدت المغرب الأقصى للعديد من المجاعات والأزمات الاقتصادية نتيجة لعدم سقوط الأمطار، ففي الفترة الممتدة من سنة ١١٣٤هـ/١٧٢١م – ١١٣٧ هـ / ١٧٢٤م نكب المغرب العربي بسلسلة من سنوات القحط الذي زاد من غلاء المعيشة وانتشرت المجاعة والأمراض بين السكان فساهم كل هذا في حدوث هذه الهجرات .

كما أن قدم تواجد المغاربة منذ الفترة المملوكية في اغلب المدن المصرية يساعدهم على الهجرة ، وبالتالي لم يجد المغاربة في بيئة جديدة تعرقل سيرة حياتهم اليومية ، بل يجد نفسه في وسط مجموعة من الأقارب المتفقين معه في العادات والتقاليد .

كما شهدت بلدان المغرب العربي في هذه الفترة ازدهاراً في انتشار الطرق الصوفية المتعددة وتكاثر الزوايا الصوفية في أنحاء البلاد، وقد لعبت هذه الطرق دوراً لا ينكر في الدعوة للجهاد ولمجابهة الغزو الاسباني إلى جانب دورها التعليمي، ولكنها في نفس الوقت دخلت في صراع جدلي حول مفاهيم وأيدلوجية كل منها مما دفع برجالها والمعارضين لها للاتجاه ألي الشرق خاصة مصر للتزود بروحانيته لتعزيز موقف كل فريق، وذلك بالبحث عن هذه الروحانية في مراكز مصر الثقافية ومراكز هذه الطرق الصوفية في مصر ، يضاف إلى ذلك السياسة التي اتبعتها الدولة العثمانية في تشجيع المذهب الحنفي في بلدان على حساب المذهب المالكي الأمر الذي لم يجد قبولاً في هذه المناطق التي تنتهج المذهب المالكي مذهباً فقهياً لها يضاف إلى هذا العامل رحلة الحج إلى بيت الله الحرام وأداء الفريضة التي كان المغاربة يتمسكون بها اشد التمسك كعامل مقوي لوجدانهم الديني فيذهبون إلى الشرق لأداء تلك الفريضة الدينية وفي ذات الوقت للتزود بزاد المعرفة على يد العلماء المصريين وكثيراً ما استقر بهم المقام في الأزهر أو المدن المصرية ، والتتلمذ على يد علماء الأزهر ورجال الطرق الصوفية من المصريين .

---

١ – أحمد شلبي عبد الغني، أوضح الإشارات فيمن تولى مصر القاهرة من الوزراء والباشوات ، تحقيق عبد الرحيم عبد الرحمن ، مكتبة الخانجي للنشر ، القاهرة، ١٩٧٨ م ، ص ١٠٣

كما أن توافر المراكز الثقافية المزدهرة ساهمت في جذب العلماء صلباً للتزود من كبار علمائها في مختلف فروع المعرفة ، وعلى رأس هذه المراكز الأزهر الشريف.

كما أن موقع مصر الجغرافي لعب دوراً هاماً في تاريخها حيث جذبت بموقعها الفريد العديد من العناصر التجارية المغاربية بل والشامية والتركية وغيرها من الراغبين في الشراء والبيع والعمل التجاري الضخم ، ولما كانت القاهرة من أكبر المدن في الدولة العثمانية بعد اسطنبول فقد كان هذا سبباً وراء اتخاذ عدد كبير من التجار المغاربة قراراهم بالاستقرار في مصر التي هي من أهم نقاط تلاقي الطرق التجارية الدولية . وكان التجار المغاربة يعرفون جيداً فرص النجاح التي تنتظر التاجر الذي يمارس نشاطه في مصر خاصة بعد أن تأكد المغاربة من ضخامة هذا النشاط التجاري في مصر.

ونتيجة لعوامل الهجرة المغاربية المختلفة جاءت بعض القبائل المغربية سواءً كانت من أصول بربرية أو من أصول عربية واستمر مجيء القبائل المغربية في القرن الثامن عشر وأتيحت لهذه القبائل فرصة الاستقرار، بينما آثرت بعض هذه القبائل حياة التجوال بين أرجاء هذا الريف وقراه وعلى أطرافه ومن أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب ومن أقصى غربه إلى أقصى شرقه.

وقد قدر للقبائل التي استقرت في بعض المناطق الريفية الزراعية أن يصبح لها وصفها على خريطة الريف المصري بينما ظلت القبائل المتجولة غير مرتبطة بمنطقة معينة لأنها تجد بغيتها في هذا النمط من الحياة .

وقد حاولنا في هذه الدراسة توضيح دور القبائل المغربية ومدى تأثير هذه القبائل في الريف المصري وان كان إيجاباً أو سلباً من خلال تتبع مناطق إنتشار هذه القبائل وانعكاس آثار هذا الموقف على أحداث تاريخ مصر السياسي والاقتصادي والاجتماعي في الفترة موضوع الدراسة .

وفي إطار النظم الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع المصري آنذاك لا يمكن أن نغفل دور المغاربة في الحياة الاجتماعية المتمثلة في وجود فئة الأشراف الذين ينتمون لعائلات مغاربية والذين أصبحوا يشكلون فئة ذات تمايز اجتماعي واضح داخل المجتمع المصري.

كما أوضحت الدراسة العلاقات الاجتماعية لكبار التجار المغاربة مع فئات المجتمع خاصة العلماء، حيث أدرك التجار المغاربة دور العلماء في مصر لاسيما وان هذا المجتمع كان تفكيره قائماً على الوازع الديني، ومن هنا جاءت رعاية التجار المغاربة لكثير من العلماء والإنفاق على المؤسسات العلمية وعلى طلاب العلم وغير القادرين على المصروفات ، وذلك عن طريق تقديم الهبات أو وقف بعض أملاكهم ، وبرز في هذا المضمار عدد من العائلات المغاربية منها أسرة الشراييبي التي أوضحت المصادر والوثائق منذ مطلع القرن الثامن عشر المكانة الاجتماعية التي وصلوا إليها وكيف صارت هذه الأسرة من الطبقة الارستقراطية ، واتخذت لها مقراً للإقامة بالأزبكية بجوار الأمراء والمماليك آنذاك .

وهذا ما أكده الجبرتي حينما وصف بيت الشراييبي بقوله " وبيتهم يشتمل على إثنى عشر مسكناً ، كل مسكن بيت على حدته " [1]

وكان الأمراء يترددون إليهم كثيرا من غير سابق دعوة ، ولم تكن هذه الأسرة رغم تميزها الاجتماعي منغلقة على نفسها بل إنها تمد يدها لكثير من أبناء هذه الفئات المغاربية وغير المغاربية ، بالإضافة لعدد من كبار التجار المغاربة الذين لعبوا دوراً اجتماعياً كبيراً لا يقل كثيراً عن دور هذه الأسرة كعائلة السقاط والبناني وعائلة أحمد الشرفي وغيرهم .

كما سجلت الوثائق التي اعتمدنا عليها مظاهر الإندماج الاجتماعي من خلال التزاوج والتصاهر بين العائلات المغاربية والمصرية ، هذا فضلاً عما تتركه هذه العملية من التأثر والتأثير في العادات والتقاليد والأعراف بين هذه الأسر .

كما عكست الدراسة دور المغاربة الاقتصادي ومشاركتهم الفعالة في أوجه النشاط الاقتصادي المصري طوال القرن الثامن عشر سواءً كانت نشاطات من رؤوس أموالهم في مجال امتلاك العقارات والوكالات التجارية المتعددة لتخزين وبيع السلع والبضائع سواءً المستوردة أو المصدرة ، وكيف تمكن المغاربة من السيطرة على عدد من الأسواق كسوق الفحامين نتيجة لتولي عدد منهم لوظيفة الشاهبندر داخل السوق.

بالإضافة إلى ذلك ركزت الدراسة على تدرج المغاربة في مراتب معينة طبقاً لنظام طوائف الحرف واشتغال المغاربة بالأنشطة الصناعية والمهنية المعمول بها خلال القرن المذكور، والتي تعددت تنظيماتها وأنواعها وانتشرت في مدن مصر مثل الإسكندرية ورشيد ومنوف والمنصورة واحترفها صناع مغاربة ويأتي في مقدمتها صناعة الزيوت التي تخصص المغاربة في صناعتها وعملوا على تعيين شيخ عرف " بشيخ طائفة الزياتين " .

وغيرها من الحرف والصناعات الخدمية التي اشتغل بها المغاربة داخل المجتمع المصري ، كما وجه نفر من التجار المغاربة اهتمامهم إلى الزراعة بهدف استثمار أموالهم فيها والحصول على المواد اللازمة لتجارتهم منذ بداية القرن الثامن عشر ممثلة في حصص الالتزام الزراعية وأراضي الوقف.

ولم نغفل في هذه الدراسة النظام المالي المعمول به في مصر في تلك الفترة من خلال العملات المتداولة ومحاولة المغاربة التغلب على تذبذب العملات المطروحة، والتعامل مع العملات الأكثر ثباتاً في قيمتها داخل السوق، والتهرب من دفع الرسوم الجمركية بأساليب مختلفة ومدى تأثر التجار المغاربة من خلالها سواءً عاد عليهم بالربح أو ما أصابهم من خسارة.

وإلى جانب ممارسة المغاربة للنشاط الاقتصادي والاجتماعي في مصر فقد سعت الدراسة لتوضيح ملامح التأثير الثقافي للمغاربة داخل المنشآت العلمية ومع إخوانهم المصريين ، ومن خلال تواجدهم في الأزهر واعتبار المغاربة للأزهر المؤسسة التي تحمل على عاتقها عبء التعليم بجانب

---

١ – عبد الرحمن الجبرتي ، عجائب الآثار في التراجم والإخبار ، مطبوعات مكتبة مدبولي القاهرة ، ١٩٩٧ ، ج٣ ، ص ٣٧٥.

حفاظها على التراث الإسلامي ، ومن خلال تواجدهم في الزوايا والكتاتيب والمدارس العلمية الموجودة في مصر منذ العهود الإسلامية.

وكيف حرص عدد كبير من المغاربة على إطالة مدة إقامتهم بالقاهرة لمتابعة الدراسة على أيدي مشاهير المشايخ للحصول منهم على شهادة إجازة تسمح لهم بالتدريس في بلادهم أو داخل المؤسسات العلمية الموجودة في المدن المصرية ، الأمر الذي أدى إلى بروز عدد من العلماء المغاربة الذين كان لهم دوراً كبيراً في الحياة العلمية والتجارية في آن واحد كعائلة الشيخ محمد بن أبي بكر الطرابلسي ، وعائلات البناني ومساهمة العديد منهم في إنشاء الزوايا وبناء المساجد ، ففي الإسكندرية شيد المغاربة زاوية جميع وفي القاهرة شيد الشيخ قاسم الشراييبي مسجده في منطقة الرويعي . بالإضافة إلى دعم المغاربة لمجاوري الرواق في الأزهر وسجلت الوثائق الكثير من الأوقاف التي حبسها التجار للعلماء لينفق من ريعها على طلاب العلم .

ويظهر التأثير المغاربي واضحاً من خلال نشاط الكثير من العلماء في مصر من التأليف إلى النسخ والبحث عن دقائق الكنوز العلمية وقيام عدد من المغاربة للمناظرات وتبادل الرسائل والفتاوى بين العلماء داخل الأزهر الشريف كما تأثرت دور الكتب المصرية بمؤلفات المغاربة في مختلف العلوم وأصبحت زاخرة بها وامتلأت هذه الدور بمخطوطات وكتب للمغاربة .

وقد ساهمت تلك الدراسة في إظهار عدد من العلماء المغاربة من خلال توليهم الوظائف الإدارية ، وعلى رأسها مشيخة الرواق بالإضافة إلى المناصب الأخرى التي شغلها المغاربة كالإفتاء والقضاء وغيرها ومقدرة المغاربة على النجاح في مثل هذه الوظائف خلال القرن الثامن عشر.

ومن العرض الموجز السابق للعوامل السياسية والاقتصادية والثقافية والدينية المتعلقة ببلدان المغرب العربي والجاذبية المتعلقة بلدان المشرق العربي التي دفعت بأبناء المغرب العربي إلى الهجرة إلى مصر ، فقد أتيح لكثير منهم الاستقرار بها واتخاذها وطناً ثانياً لهم ، وكذلك بالنسبة للعربان الذين ساقتهم حياة التجوال تحت ضغط الظروف الطاردة إلى التجوال في ريف مصر .

وبذلك تغلغل المغاربة في جميع أرجاء مصر ريفها وحضرها بلا استثناء حتى قدر لهذه الجالية التي ازداد تواجدها بصورة ملحوظة خلال القرن الثامن عشر ان تلعب دوراً بارزاً في تاريخ مصر الاقتصادي والاجتماعي والفكري وأصبح دور هذه الجالية نموذجاً مثالياً لدراسة تأثير الجالية في المجتمع الذي توجد فيه وهذا ما سنوضحه في الفصول التالية من خلال وثائق المحاكم الشرعية التي تكاملت مع كتابات الرحالة المغاربة والأجانب والمخطوطات والمصادر والحوليات .

الملامح العامة لأوضاع المغاربة
في مصر في القرن السابع عشر
سياسية . اقتصادية . اجتماعية . ثقافية .

لقد لعبت طبيعة الحكم العثماني في مصر دورها في تقوية العلاقات الإسلامية إجمالاً ، ولم تضع قيوداً على حركة السكان وممارسة نشاطاتهم المختلفة ، في أي من البلدان التي خضعت لسلطانها سواءً في أوروبا أو آسيا أو إفريقيا ، فازدادت حرية الحركة والتنقل ؛ مما أعطى للمغاربة الفرصة في ممارسة نشاطاتهم المختلفة دون عائق[١]. وبدأت تظهر الملامح الدالة على التواجد المغاربي وأوضاعه داخل المجتمع المصري بشكل بارز خلال القرن السابع العشر لا سيما وأن هذه الفترة في تاريخ مصر السياسي تميزت بالصراع على السلطة التي دارت رحاها بين السلطات العثمانية والجماعات العسكرية المملوكية ، إلا أن الطائفة المغربية لعبت دوراً مميزاً في أحداث الصراع من خلال امتلاكها للثروة التي سعى إليه كِلا طرفي الصراع لاكتسابها إلى جانبه حيث كان تأييد التجار المغاربة لأحد طرفي الصراع السياسي يقلب توازن القوى مما جعل الأطراف المتنازعة تأخذ في اعتبارها الدور السياسي والاقتصادي والاجتماعي للتجار المغاربة .

وتبرز أهمية العنصر المغاربي في مصر منذُ القرن السابع عشر حيث كان المغاربة أكثر اقتراباً بالهياكل العسكرية والسياسية .

وهذا يعود أولاً لتعاطف الدولة العثمانية تجاه المسلمين في إسبانيا منذُ سقوط غرناطة[٢]، والثاني حاجة الدولة العثمانية إلى المغاربة في الأسطول العثماني، وبالفعل تم تجنيد المغاربة في القوات البحرية لقدرتهم الجسدية وإتقانهم لمثل هذه الأعمال[٣] .

هذا الدخول المبكر للمغاربة في الفرق العسكرية سمح لهم بالترقي في المناصب العسكرية منذُ النصف الأول من القرن السابع عشر وشغلوا أعلى المناصب في الإسكندرية ورشيد وغيرها من مدن الثغور المصرية ، وأصبح منهم القباطنة لهذه الثغور[٤] .

وقد سبق القول إلى أن ازدواجية السلطة في مصر قد سمحت بهامش أوسع من حرية الحركة للتجار تجاه الطرف الذي كانوا يرون مصالحهم معه فاستعان التجار المغاربة برجال مستحفظان لوقف تعديات الباشوات عليهم . فمثلاً عندما قام إبراهيم باشا السلحدار في سنة ١٠٣٢ هـ – ١٦٢٢م باتباع سياسة تعسفية تجاه التجار بطرح البضائع والسلع عليهم وإجبارهم على شرائها بسعر أعلى من السعر المعتاد فقد تصدى له رجال الاوجاقات العسكرية ومنعوه من الاستمرار في تلك السياسة[١] .

١- ليلي الصباغ، الوجود المغربي في المشرق المتوسطي، المجلة التاريخية المغربية، العدد ٧–٨، تونس، ١٩٧٧، ص ٧٨ .

٢- عبد الجليل التميمي ، رسالة من السلطان العثماني أحمد الأول إلى أم دوق البندقية حول المورسيكيين ، المجلة التاريخية المغربية . العدد ٧ – ٨ . تونس ١٩٧٧ . ص ص ٧٠ – ٨٠ .

٣- القسمة العسكرية . س ٤٤ . م ٣٨٣ . بتاريخ ١٠٤٥ هـ / ١٦٣٥ م .

٤- نفس المصدر ، س ٥٨ . م ٣٠٠ . بتاريخ ١٠٦١ هـ / ١٦٥٠م .

١- محمد بن عبد المعطي الاسحاقي . أخبار الأول فيمن تصرف في مصر من أرباب الدول . المطبعة العثمانية . القاهرة . الطبعة الأولى . ١٣٠٤ هـ . ص ١٧٤ .